

إن تقاليد الشعر وأعرافه لم تزل هي إياها ما بين الفترتين، ما قبل الإسلام وما بعده، بل إن عدداً من الشعراء عاشوا الفترتين مثل لييد وحسان وكعب بن زهير وغيرهم. فما الذي حوّلهم فجأة من الشفاهية إلى الإبداع الفردي، والنص الأصيل بدلاً عن النص المشاع...؟

طبعاً نحن نعرف أن ليس لدى أصحاب الشفوية من إجابة، ولسنا نطلب منهم أية إجابة، ولكن فكرة التمييز ما بين إبداعية الشاعر، وشفوية الراوي، هي التي تستطيع الإجابة على هذا السؤال، لأن الجاهلي ظلّ شعراً مروياً لمدة طويلة، تعرض فيها لكافة عيوب الذاكرة الفردية والنقل، بينما اقترب شعر عصور الإسلام من التدوين فسلم من كثرة الخلط.

وبما أن شعر صدر الإسلام والأموي قد سلم من الشوائب فإنه يصبح أداة صالحة للقياس، من حيث إنه استمرار حي لتقاليد النص، وهو مثال شاهد يدل على الغائب، وربما صارت هذه القاعدة أساساً يريح الباحثين الراغبين براحة البال. ولن يجافي الصواب من فعل ذلك. ولكننا نحن نفتح الباب على واجهته حيث نأخذ بالقياس من جهة، ونقف على الملابس وقوفاً مباشراً من جهة أخرى. ولهذا فإننا في هذا المبحث سوف نستعين بأمثلة من شعر عصور التدوين لكي نستظهر فيها الأعراف الشعرية المتوارثة.

على أن ما قلناه من قبل لا يحل كل المشكلات، وإن كان يطرح نفسه كحل نصوصي - جذري - لمشكلة تداخل الذاكرتين. وفي سبيل تحرير هذا الحل من ملابس الشعر المروي